ذكريات أول وجداني الذهني

كنت في سنة ١٩٠٥ تلميذاً في السنة الأولى الثانوية قد تركت بلدتي الزقازيق ورحلت إلى القاهرة ؛ إذ لم تكن في تلك السنين مدارس ثانوية إلا في القاهرة أو الاسكندرية . وكانت سني إذ ذاك نحو ١٥ أو ١٦ سنة ، فشرعت أقرأ الجرائد اليومية وأشترى المقتطف والجامعة وأسأل عن الكتب . ولم تكن هناك مجلات أسبوعية . وبقيت الحال كذلك إلى أن أنشأت أنا أول مجلة أسبوعية سنة ١٩١٤ وهي « المستقبل » .

وعرفت المقتطف . وكان اهتدائي إليه من المصادفات البديعة التي أعانتني على التثقيف الذاتي . وكنت أشترى الأعداد القديمة بل أحياناً الأعداد الجديدة ، من الإدارة ، على غلاء ثمنها ، وألتهمها من الغلاف إلى الغلاف . وعند ما عدت إلى الزقازيق وجدت في بيت صديق لي بقرية قريبة من الزقازيق نحو مئة عدد من هذه المجلة ، فاقترضتها وقرأتها جميعها . وكان يحرر المقتطف في تلك السنين الدكتور يعقوب صروف . وكانت بؤرة اهتمامه الذهني في ذلك الوقت نظرية التطور التي كان يسميها نظرية النشوء والارتقاء . ولذلك لم يكن يخلو عدد من بحث هذه النظرية .

وفي مجتمعنا المصري كثير من الكظوم التي ترهق الذهن بالقيود والسدود . وكان الإيمان بنظرية التطور نوعاً من التفريج والانتقام . ولذلك وجدتني في ذلك الوقت داعية متحمساً لهذه النظرية في البيت والمدرسة وفي كل مكان آخر . وشعرت كأني ممتاز بهذه النظرية . فبعثني هذا إلى التوسع فيها ، وعرفت لذلك الدكتور شبلي شميل ، وكان رجلا كبير الذكاء محدود المعارف . فكان يعتمد على الحجة المنطقية أكثر مما يعتمد على البينة العلمية . وفي الوقت الذي كان يعتمد فيه المقتطف على البينات العلمية وينقل أقوال البيولوجيين في أوربا عن هذه النظرية كان شبلي شميل يدفع عنها ويدعو إليها بقوة المنطق . ولكن يجب مع

هذا أن نذكر فضل شبلي شميل في أنه نقل إلى العربية كتاب بوخنر في المادة العامية . والحق أن هذه النظرية كانت رؤيا جديدة لشاب مثلي لم يكد يخرج من طور الصبا ، كما كان شبلي شميل بجرأته وذكائه شخصية فذة لها قوة الإيحاء والتوجيه في نفسي .

ولكن مع ذلك لم يستطع المقتطف ولا شبلي شميل تكوين مدرسة فكرية . لأن الركود الذهني كان عاما كما كان الشرق بقواته التاريخية الساحقة يخيم علينا بل يحط علينا بكلكله . فلم يكن المجتمع المصري وقتئذ يجيز لنا أن نبوح ونعلن سرائرنا . فكنا لذلك أفراداً متفرقين نناقش هذه الأفكار والآراء في همس متسترين أو في استحياء يشبه الاعتذار إذا صادفنا غرباء . وكثيراً ما كنت أجد أن الحجة تنتقل من الرأس إلى الذراع ، فأسارع إلى التسليم وأعلن صحة العقائد والتقاليد وكذب الآراء والعلوم . لأن المنكرين كانوا في العادة أكبر مني سنًّا وأضخم جسماً . . .

وإني أعزو إلى المقتطف هذه النزعة العلمية التي لازمتني طيلة حياتي الماضية كما أعزو إليه هذا « الأسلوب التلغرافي » الذي أكتب به والذي يظن كثيرون أنه من اختراعي . وكان الدكتور يعقوب صروف لا يعرف التزاويق بل كان في الأغلب لا يتذوق الجملة البليغة أو الكلمة الناصعة أو العبارة المتلألئة أو سائر تلك الألاعيب الصبيانية التي كان الكتّاب يرفعون من شأنها إلى قبيل الحرب الكوكبية الأولى .

وكان يرافق هذا الوجدان العلمي بالنظر المادي وجدان أدبي آخر غمرني وبسط لي آفاقاً جديدة . ذلك أننا في تلك السنين أي حوالي سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ لم نكن نعرف من معنى الأدب سوى القواعد الجامدة للبيان والبلاغة التي نحفظها عن ظهر قلب في جمود أو كراهة . ولكنا كنا نتذوق شيئاً من الجمال الفني ومقالات اللواء ومصباح الشرق . وكنا نقرأ كتاب أدب الدنيا والدين للماوردي أو كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع . والواقع أن أسلوب الأول يخالف أسلوب الثاني ؛ فإن الماوردي مسهب غير مملم أو محبوك في حين أن ابن المقفع موجز رصين مضبوط . ولذلك كانت رؤيا جديدة بل إلهاماً جديداً أن أعرف مجلة « الجامعة » لفرح أنطون . فقد عثرت على بضعة عشر عدداً من هذه المجلة ، ثم اقتنيت مؤلفات هذا الكاتب العظيم ، فرأيت دنيا جديدة من الأدب

الأوربي لم نكن نعرف عنها شيئاً من قبل . وقد مس هـذا الادب أوتاراً فى نفوس جميع قارئيه فى الشرق العربى . لأن هذه الدنيا الجديدة من الأدب الأوربى كانت تختلف ، لا بل تناقض ، ما تعلمنا من أدب عربى . ذلك لأن الأدب العربى ، كما نعرفه فى ذلك الوقت ، كان أدب السلطة والتقاليد والعقائد . ولـكن الأدب الأوربى ، أو بالأصح الفرنسى ، الذى نقله إلينا فرح أنطون ، كان أدب الثورة والتمرد ، أدب العقل الذى يحس والقلب الذى يعقل. أدب ڤولتير وروسو وديدرو وبرناردين سـان بيير . وكان جميع هؤلاء مجاهدين يكافحون استبداد الملوك والأمراء واستبداد العقيدة وسلطان التاريخ .

وكنا نحن فى مصر فى حالة اجتماعية وسياسية تحملنا على الترحيب بهذا الأدب ، ففتحنا له قلوبنا ، لا بل تفززنا وتمردنا . وكان هذا الأدب هو الذى هيأ فرنسا ، التهيئة الذهنية للثورة الـكبرى . ويبـدو لى الآن أن فرح أنطون لم يكن على جهل بما يعمل . فإنه خرج من لبنان حوالى سنة ١٩٠٠ وكان هذا القطر يغط فى ركود تاريخى آسن وقد خيمت عليه الدولة « العثمانية » ومنعت عنه النور إلا بصيصاً يتلقاه الشباب فى كلية بيروت الفرنسية أوالجامعة الأمريكية . ودرس فرح أنطون الفرنسـية وتشبعت نفسه وذهنـه بآدابها . فلما رحل إلى مصر وجد شيئاً من الحرية . ولـكنه أدرك أن الظلام الذى يشكوه لبنان هو نفسه الظلام الذى تشكوه مصر مع فرق فى الدرجة فقط . فعمد إلى هؤلاء المؤلفين الفرنسيين الذين ذكرت أسماءهم ينقل عنهم أو يستلهمهم فى كل ما يكتب . ومن هنا جدّته وطرافته لى بل لجميع قرائه . فإن المقتطف لم يكن يعنى بالأدب . وكان «مصباح الشرق» جريدة أدبية يصدرها المويلحى ، ولـكن لأدب العرب فقط . أما الجامعة فانفجرت بيننا تنير وتشير . أى تنير عقولنـا وتشير إلى مبادئ ومناهج رتبها أدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وكان يحس أننا فى حاجة إلى هذه المبـادئ والمناهج . ولذلك زادنا بترجمة قصة الثورة الفرنسـية لألكسندر دوماس . ولا أعرف واحداً يقظاً فى تلك السنين لم يقرأ هذه القصة ولم يتغير بها وبسائر مؤلفات فرح أنطون .

وكان جديراً بهذه المؤلفـات أن تحدث حركة رومانتية فى الأدب العربى ، ولـكنها للأسف لم تحدث . فإن خلاصتها أن الإنسان حسن مسالم ، ولـكن المجتمع سيئ يحمل على الرذائل . وما أبدعها من فـكرة لأنه مثل أمتنا فى مثل

عصرنا سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ . فإن هذه الفكرة كانت جديرة بأن تختمر وتبعث النشاط الذهني في جميع القراء ، كما تبعث وجداناً أدبيًّا جديداً ينضح ويتوالد في شتى الأفكار والآراء .

ولعلي محتاج هنا إلى أن أشرح ماذا أقصد إليه من الاتجاه الرومانتي في الأدب . فإن الأدب يمكن أن يقسم من ناحية المزاج والاتجاه وقواعد التفكير واللغة بأنه أدب سلفي أو أدب رومانتي . وليس أحدهما خيراً من الآخر ، ولكنهما مختلفان . وفي فترة ما تحتاج الأمة إلى النزعة السلفية في حين أنها في فترة أخرى قد تحتاج إلى النزعة الرومانتية .

فالنزعة السلفية تقتضي العناية بالماضي والجري على أساليب السلف في قواعد التفكير واللغة . فڤولتير سلفي . وطه حسين في كتابه عن المعري سلفي . والعقاد في كتبه عن رجال الإسلام الأولين سلفي . وقس على هذا .

والنزعة الرومانتية تقتضي الخيال أكثر من التقيد بالنصوص . وهي تجنح إلى الابتداع بدلا من النص والقاعدة . ولذلك كان روسو رومانتيا ، كما أن طه حسين في « الأيام » رومانتي . وكذلك توفيق الحكيم رومانتي في معظم ما يكتب .

ونحن محتاجون إلى النزعتين ، ولكنا في مصر أكثر احتياجاً إلى النزعة الرومانتية . وإنها هي في النهاية نزعة التجديد واقتحام المستقبل .

وكان فرح أنطون فيما ألف ونقل رومانتيًّا . بل إن أول الكتب التي نقلها عن الفرنسية كان كتاب « إميل » لجان جاك روسو ، وهو يعد أساساً للحركة الرومانتية في أوربا ، ويقول بأن الطبيعة البشرية حسنة يفسدها المجتمع والحكومات والقوانين . وهذا الكتاب مع الأسف لم يطبع إلى الآن .

ولكن حياة فرح أنطون في ذلك الوقت بترت ؛ لأنه وقع في مناقشات تمس الدين مع الشيخ محمد عبده ، فبارت مجلته بعد الرواج . ورحل إلى القارة الامريكية حيث اشتبك في خصومات صحفية لم يكن القلم وحده أداة الرأي والحجة فيها ، فعاد مهزوماً إلى مصر .

وكان أثر فرح أنطون في نفسي أني أكبرت الأدب الأوربي إكباراً عظيما. ولم يكن هذا غريباً في مثلي . فإن فرح أنطون استبدل بالماوردي عندي جان جاك روسو ، وحملني على أن أستبدل بالكلمة الوضيئة والعبارة المذهبة أدب المبادئ والفلسفة والفكرة .

وعرفت فرح أنطون بعد ذلك حين اشتغلت معه فى جريدة اللواء ، وكانت جريدة الحزب الوطنى يرأسها المرحوم عثمان صبرى حوالى سنة ١٩١٠ ، فزادنى توجيهاً نحو الأدب الأوربى . وعاش فرح فى مصر إلى سنة ١٩٢١ حين توفى وهو فى الحادية والأربعين . وكانت وفاته نكبة على النهضة المصرية السياسية والأدبية . وكان من السوريين القلائل الذين اندمجوا فى الحركة الوطنية المصرية اندغاما تاما . وكان سعد زغلول يحبه ويقدره . وزاره واصف غالى باشا وهو فى فراش المرض قبيل وفاته بمنزل أخته السيدة روزا حداد وقدم له تحية الوفد .

والآن أعود بالذاكرة إلى هذه الشخصية الفذة وأتساءل : ما مقدار ما ضاع منا بوفاته ؟

الحق أن ما فقدنا فيه عظيم فادح . فلو أنه عاش إلى أيامنا مثلا لطبع النزعات الأدبية والسياسية فى مصر بطابعه . ولعله كان يوجه الأدب المصرى هذه الوجهة الرومانتية التى آسف على أنه لا يتجهها الآن . لأننا على الرغم من كل جديد فى هذا الأدب ما زلنا نعيش فى أسر التاريخ بأدب أغلبه سلفى ، نفكر بمزاج سلفى فى لهجة سلفية . وأدبنا هو أبعد الآداب عن روسو ، بل لقد أصبحت حركاتنا الاجتماعية سلفية أيضاً .

وكان فرح أنطون بشرى النزعة والإيمان ، يؤمن بالإنسان ويكره الأساطير الغيبية بل يشمئز منها . وكان يمتاز بالذهن الاستطلاعى يرود كل جديد فى الثقافة الأوربية . فهو أول من كتب عن نيتشه . وأظن أنى أنا كنت الثانى ؛ لأن أول مقال صحفى لى كان فى المقتطف سنة ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الإنسان » وقد وصلت إلى نيتشه مستقلا وأنا بأوربا .

ولذلك عقب عودتى من أوربا واتصالى به كنت لا أجد موضوعاً أختلف فيه معه . وكنا نتحدث عن الاشتراكية والنزعات الأدبية الجديدة والسياسية فى مصر ، فنكاد نتفق فى كل شىء حتى فى العقيدة الدينية .

***

وفيما بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٠ ظهرت قوة جديدة فى مصر لها أثر آخر فى توجيهى النفسى ، وكانت هذه القوة أحمد لطفى السيد . ففى تلك السنين كانت الوطنية المصرية فى طور اليرقة لم تنسلخ بعد إلى الجسم الحى الكامل . وكانت

عرضة لأخطار شتى وتطورات مختلفة . وحسب القارئ أن يعرف أن كلمة « وطنية » ليست عربية ، وأننا سككنا هذه الكلمة كي نعبر عن وجدان جديد . ذلك أن مصر في بداية هذا القرن كانت لا تزال في أسر الماضي وكانت الدولة « العثمانية » هي دولتنا التي كنا نكافح بها الأمبراطورية البريطانية . وكان بيننا متنبهون تعلموا في المدارس الفرنسية او نبهتهم الحوادث وأيقظت فيهم وجداناً وطنيا ، فلم يكونوا يسيغون منطق اللواء والمؤيد في الدفاع عن استقلال مصر بحق الأتراك في سيادتها . وكان الأقباط ينفرون من هذه الوطنية العثمانية نفوراً عظيما.

وظهر لطفي السيد في الجرائد يدافع عن هذه البديهيه الواضحة ، وهي أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الإنجليز. ووجد في الأول مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعاية للأتراك . ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأي العام في مصر . ووجد الأقباط منطقاً في هذه الوطنية كما وجد المثقفون فيها أملا جديداً يعبيء الأمة للإصلاح والتجديد فأقبلوا على الجريدة وشغفوا بمقالات لطفي السيد .

وكثير من القراء في أيامنا ، أي بعد نحو ٣٥ سنة من هذه الحركة ، لايعرف مقدار هذه الحركة وفضل أحمد لطفي السيد فيها. ذلك اننا جميعاً قد اعتنقنا هذه الوطنية الجديدة ، وطنية مصر للمصريين ولم نعد نعرف غيرها . ولكن على القارئ أن يذكر أن الدولة « العثمانية » كانت شيئاً أكبر من تركيا الحاضرة . وكانت إمبراطورية شاسعة لها جيوش وموظفون في اليمن والحجاز والعراق وطرابلس . وكانت الرحلة السنوية إلى استامبول أو كما كان يسميها الصحفيون وقتئذ « دار السعادة » لا تقل في عدد المسافرين المتنزهين عن الرحلة إلى باريس . وكان حبل الدسائس لا ينقطع بين القاهرة واستامبول . ولكنه مع ذلك كان واهيا ، كما كانت هذه الدسائس عقيمة .

وكان لطفي السيد وعبد العزيز فهمي وقاسم أمين جيلا جديداً في مصر بعد الجيل الذي كان منه الأفغاني ومحمد عبده . وكان هذا الجيل أكثر جرأة . ولذلك نجد أن قاسم أمين يدعو إلى سفور المرأة وإلغاء الإعراب في اللغة . ولطفي السيد يدعو إلى العامية . كما نجد عبد العزيز فهمي يدعو إلى الخط اللاتيني . وقد حفظ هذا الأخير شبابه الذهني إلى ما بعد السبعين . وهو يعاني الآن من هذا الشباب سناً من خصومه أولئك الشبان الذين شاخوا قبل الأوان .

والواقع أن لطفي السيد مهد لحركة سنة ١٩١٩ بجمع الأمة على رأي موحد في الوطنية، كما أنه جعل التجديد مساغاً لا يتهم القائمون به بالهوج أو الرعونة. بل أصبحت الدعوة إلى حرية المرأة وتعليمها شيئاً وقوراً محترماً، واحترمت «الجريدة» بعد أن كانت موضوعة النكات البذيئة.

وقد سبق أن قلت إن أسلوب المقتطف كان علميًّا مقتصداً وإني أخذت عنه ما أسميته « الأسلوب التلغرافي » . ولكن أسلوب لطفي السيد كان موجزاً مقتصداً أيضاً. وهو أشبه الأساليب بأسلوب ابن المقفع. وأظن أني تأثرت به أيضاً.

وقد كان هؤلاء الثلاثة : يعقوب صروف، وفرح أنطون، ولطفي السيد، من القوات التي صاغت شخصيتي الثقافية الذهنية. فإن الأول وجهني إلى طريق العلم. والثاني بسط لي الآفاق الأوربية للأدب. والثالث جعل من المستطاع لي، بوصف أني غير مسلم، أن أكون وطنيًّا في مصر.

سلامة موسى